الضوء المفقود

قصة قصيرة

ظل الطفولة

كان مرتجفًا، واقفٌ عاجزٌ عن التفكير. كان ذلك شجارًا محتدمًا بين والديه حتى وصلت الأمور إلى حد الاعتداء؛ فلم يستطع الوقوف أكثر، بل تدخل هو وأخوته. وكان الأصغر سنًّا بينهم، حيث كان يبلغ عشر سنوات، ولكنه كان ساذجًا، فلم يكتفِ بذلك فقط.

بل أمسك بجيب بنطال أبيه وجذبه بكل ما أوتي من قوة، حتى تمزق بين يديه الصغيرتين، وكان ذلك كالشرارة التي أشعلت النيران. انزعج والده واندفع غضبه نحوه. وصفعه صفعة مؤلمة فقد على إثرها السمع لبضعة لحظات، وصاح في وجه الصغير قائلاً: "أيها الأحمق!"

ثم جذبه بقوة خلفه نحو الغرفة، وألقاه بعنف على الأرض الصلبة، حتى ضرب رأسه بالمنضدة. لكنها لم تكن إلا إصابة طفيفة مقارنة بما حدث له بعدها. فهو لم يكتفِ بهذا القدر، بل بعد أن ألقاه، قام بإغلاق الباب بإحكام، حتى لا يتمكن أحدٌ من إنقاذه.

ثم بدأ ينهال عليه بالضرب المبرح، وكأنه ليس طفلًا ذو عشر سنوات. حينها، بدت الدنيا في عينيه الصغيرة مظلمة ظلامًا حالكًا.

بعد مرور أعوام،،

استيقظ على صوت قرع الباب، ولكن هذه المرة كانت الدقات ضعيفة وغير مزعجة، فنهض ببطء من السرير متجهًا بخطوات متعثرة نحوه، وكانت المفاجأة أن الطارق كانت والدته وعلى ثغرها ابتسامة قد غابت منذ سنين.

قالت: "بني، أتمنى أن تكون قد حظيت بنوم هنيء".

بقي واقفًا يمعن النظر نحو أمه، وأجاب بصوت يكسوه الاشتياق: "أمي، أخبروني وأنا في العمل أنك توفيت، كيف هذا؟ وابتلع غصة في حلقه واستطرد قائلاً: "ولكنك حية أمامي الآن".

تبدلت ملامحها وتحولت الابتسامة إلى قلق، والنظرة الحانية إلى شفقة، وقالت: "تبدو مشوشًا. أريد منك يا عزيزي أن تنسَ الماضي. وها أنا أتيت اليوم لأزيل عنك الاشتياق، ولكن ربما تكون هذه هي المرة الأخيرة، لذلك سأطلب منك أن تنساني ولا تتذكر شيئًا إلا حينما كنا سعداء."

صمتت قليلاً ثم تابعت قائلة: "أتعلم أنك تشبه أباك كثيرًا، بني؟ إنه والدك، وتعلم كم يحبك، ولكن لكل منا طريقته في التعبير عن حبه. ربما فعل ذلك من شدة حبه لك. كان يظن أن القسوة ستصنع رجلاً".

فقلت مضطربًا: "بالطبع، أنا أحبه، وأنتِ تعلمين، ولكن كلما أنظر في المرآة وأرى تلك الندوب على يدي وجسدي من أثر ضربه، أشتط غضبًا. وحين أقرر الذهاب لأعاتبه، أراه من بعيد وحيدًا مجروحًا. ربما يدفع ثمن قسوته الآن، ولكني في حيرة من أمري، ماذا أفعل له يا أمي؟"

لتجيب بحنان: "اذهب إليه يا بني، وتذكر أيامنا الجميلة".

قلت: "فات الاوان، كان هذا ممكنًا قبل رحيلك، لكن اليوم صرت أكن له كرهًا شديدًا، ليس بسبب تلك الذكريات السيئة، وإنما لأنه أخذك مني".

أجابت والدته بحزن وكأنها لحظات الوداع الأخيرة: "ليس صحيحًا، كنت سأموت في الميعاد على أي حال، بني. ربما هذه آخر مرة تراني فيها. لذا أتمنى أن تكون بخير، ودع الماضي يذهب، وتذكر أننا بشر نخطئ ونصيب أحيانًا، ولسنا ملائكة. ربما بعض الأشياء لا تُنسى، ومع ذلك تذكر حينما كنا سعداء مجتمعين كعائلة واحدة في ذات المنزل الذي شهد الشجار والخلافات".

ثم بدأت في التلاشي أمام ناظريه، لم يدرك ما يحدث، فحاول الإمساك بها كالمغفل، ولكن محاولته كانت فاشلة. فأمه رحلت بلا عودة، وكان أحمقًا لدرجة تيقنه من عودتها غدًا مثل كل صباح، وتحدثها كما اعتاد منذ أن توارت تحت التراب.

عبء الموهبة بين الحقيقة والخيال،،

لديه موهبة عظيمة تحولت مؤخرًا إلى عبء كبير فكادت تؤدي به إلى الهاوية، فغابت عنه نفسه كما غاب الجميع. كانت أحلامه لا يعيشها، وخياله متسع لدرجة الواقعية. لطالما أراد شيئًا حققه، وكان ناجحًا وقويًا، حتى أتت الحقيقة متأخرة. تكمن تلك الموهبة في نسج الخيالات الرائعة ودمجها بالواقع المرير. تلك الموهبة جعلته منذ صغره متهربًا؛ فحينما يريد أن يكون والده هادئًا حنونًا، يصنع من خياله ذلك الشخص. وحينما يريد من أخوته المشاركة، يقوم أيضًا بصنع إخوة متعاونين. وكان المؤسف في الأمر هو التخزين الزائد على هذا العقل الصغير.

فقد كان يستدعي تلك الموهبة في أوقات الشجار بين والديه وأخوته. كان يركض مسرعًا نحو غرفته ليختبئ تحت فراشه ويتذكر تلك العائلة السعيدة التي صنعها في مخيلته. ولكن في النهاية، مضى صاحبنا محاولًا وقف ضجيج عقله كعادته التي اكتسبها منذ كان صغيرًا، إذ كان يتميز بصنع الخيال.

عندما كبر الفتى ووصل عامه العشرين، بدأ الأشقاء يتركون المنزل تباعًا، حتى بقي وحده مع والديه، وذلك مع تجنب مواجهة أبيه. كان يذهب في الصباح الباكر للعمل ويعود إلى المنزل متأخرًا. ثم توفيت والدته إثر أزمة قلبية بعد شجار عنيف مع والده. كان الخبر كالصاعقة؛ فعلى الرغم من قوة خياله، إلا أنه لم يفكر يومًا بفقدان والدته، لا سيما وأنها الحقيقة الوحيدة في حياته.

لذا قرر استدعاء موهبته بإقناع ذاته أن والدته ما زالت حية، فلم يذهب حتى لجنازتها ولم يشرف دمعة. قرر مغادرة ذلك المنزل للأبد بلا عودة، وانتقل ليعيش في مكان آخر بعيدًا عن المكان الذي ظل فيه حتى عشرين عامًا. لتعود الخيالات الكاذبة مجددًا، ولكن بطبيعة الحال.

تلك الفترة العصيبة جعلته يصنع خيالًا خصيصًا لأمه من شدة تعلقه بها، كان الأمر حقيقيًا إلى حد خطير. أصبح يراها في المنام بكل تفاصيلها وكأنها حية حتى الآن.

وفي ذات تلك ليلة، توقفت عن المجيء.. وكان هذا مخيفًا. كيف لا وهي كانت معه؟ يبدو أن وفاتها لم يدركها إلا بعد مرور تسعة أشهر عندما اختفت وتوقفت عن الزيارة في الأحلام. وأصبح بمفرده في منزل كئيب. بدأ الأمر يأخذ منحى آخر، حيث انغلق على نفسه بشكل غريب.

حتى جاء يوم اقترح عليه أحد أشقائه العودة للعمل بعد أن تركه عند وفاة أمه. يبدو أن شكله وملابسه وشعره المبعثر جعل شقيقه يدرك حجم المشكلة. وكيف وصل به الحال إلى منحدر مخيف. وكان هو الشخص الوحيد الذي سأل عنه بعد مغادرته المنزل لفترة طويلة. ولكن بالنسبة للآخرين، كان شيئًا عظيمًا.

ولكن مع الأسف، في تلك الأثناء، كان إنسانًا آخر كمن هُزِم في معركة مثيرة.. ليلعن أي شيء بعد ذلك، حتى وإن كان كوب القهوة مرًا، يلعنه وكأنه يراه معاندًا له مثل الباقيين. نزل الظلام على صاحبنا في منزله جالسًا شاردًا في لا شيء.

صدر صرير من الباب وكأن هناك من دخل، ولكن لا يهم إن كان لصًا أو قاتلًا. كان ذلك أخاه الأكبر، سأله: "لماذا الباب مفتوح؟ أتريد أن يأتي أحد ويسرقك؟" لكن صمت فجأة ونظر في الأنحاء، كان المنزل مظلمًا ليس به سوى إضاءة خافتة، وها هو أخوه يجلس على الأريكة بجوار شقيقه.

وسأله بأسى: "ما بك يا أخي، ألا تريد مواصلة الحياة؟ أتظن أن أمي كانت ستسعد بحالك هذا، أنها ميتة الآن ومع ذلك كانت ستتمنى الموت على أن تراك هكذا.. عُد لرشدك يا أخي قبل فوات الأوان؟"

قاطعه الأخير بسخط: "كفى عن هذا، أليست راحلة الآن؟ ألم تعد تشعر بنا، أليس هذا ما تحاول أن تفهمني إياه؟ نعم، أنا أدركت أنها ميتة . أنا هنا انتظر موعد رحيلي لها فحسب، فلا ترهق نفسك بلا فائدة. ولكن لماذا تلك الحياة عنيدة بهذا الشكل؟"

بدأ صوته ينخفض وملامح وجهه تبدلت، وتابع بغضب: "قد قتلها والدنا، بل قتلنا منذ صغرنا. لو كان هادئًا ويصغي لنا بضعة لحظات فقط، ولا يلومني ويسخطنا كل يوم، لما كان هذا هو الحال. الجميع غادر يا أخي ولم يبقَ سوى سخطه وغضبه في ذلك المنزل، الذي تحول لمقبرة كبيرة له وحده، أهذا ما يريد فليهنئ به.. طرق رأسه حزنًا

وتابع: "لم أدرك أن أبي قاسٍ سوى اليوم، لو علمت سابقًا لربما أخذت أمي وتركته منذ زمن.. دائمًا كنت أرى الآباء الآخرين يعاملون أولادهم وزوجاتهم باللين، وليس السب والضرب.. أين كنتُ أنا من كل ذلك؟ حتى آخر لحظة كنتُ أحب أبي ومدركًا تمامًا كم هذا الرجلُ طيبٌ مثلنا. حتى أثناء غضبه مع أمي، كنتُ أتعاطفُ معهما الاثنين، لكن بعدما ماتت، أدركتُ أنه ليس كذلك، بل وهم في عقلي، متمنيًا أن تكون حقيقة. أنا لا يمكنني العيش في هذه الحياة دون أمي، أخي اذهب واتركني. أعلم أن ضميرك هو من أتى بك هنا، ولكن لا تقلق عليّ، أنا بخير."

رد أخيه قائلاً: "ماذا تعني؟ أتريد أن تموت حقًا؟ حسنًا، لكن حاليًا أعتقد أنه يجب عليك العمل حتى يحين وقت أجلك. ما رأيك؟"

نهض الآخر ولم يرد، بل ذهب إلى النافذة وتطلع أمامه. وكأن لم يتحدث أحد منذ قليل. فتابع أخيه وقال: "أظن هذا أفضل. على أي حال، ستبدأ العمل من الغد. فعلت لك كل شيء. فقط عند الثامنة، سيكون هناك شخص ينتظرك في الأسفل. اذهب ليفهمك طبيعة عملك."

واقترب منه وقال: "إلى أن يحين وقت أجلك." نظر في أنحاء المكان وتابع: "لطالما كان المكوث وحيدًا أسوأ ما يمر به المرء" وغادر.

بعد مغادرة أخيه، ظل واقفًا كما هو، وقال في نفسه: "يبدو منطقيًا.. إذا بقيت على هذا، سأموت بعد مائة عام. يجب أن أفعل كما قال، ربما أموت في حادث سير أو ما شابه."

أصداء الصمت والثرثرة،،

في اليوم التالي، غادر للعمل كما أخبره. وبالفعل، وجد شخصًا ما ينتظره، وذهبا معًا حتى لم يتكلفا عناء معرفة أسماء بعضهما البعض.

وصلوا، وكان أول يومٍ مملاً إلى حدٍ كبير. في اليوم الثاني تلو الثالث، بدأ الأمر يروق له. وقال: "أيعقل أن هناك شيئًا أنجزه؟" شعور جميل أن تكون ذا قيمة. نعم، حتى إن غادرت، سيأتي آخر. ولكن لا يهم، يكفي أن أفعل شيئًا يشعرني بذلك.

حتى تعرف على صديق في العمل، يبدو مثله، وهذا ما جذبه.. صامتًا طوال الوقت، تكاد كلماته تنفد قبل أن يتحدث. مؤمن بما يعمل.. مثلما تصور.

ظلت الأيام كما هي، مع تطور بسيط في تحسن نفسيته، ولعله اقترب من تجاوز وفاة والدته. ثم عرف صديقًا آخر كان على العكس منه. ثرثارًا إلى حدٍ بغيض، لا يتوقف سوى بدخول المدير. حتى بدأ الملل يتسلل إليه.

وهو أفضل من يعلم معنى أن يعود ذلك الشعور السخيف مجددًا.. يبدو أن صديقه الصامت تآلف سريعًا مع الآخر وبدأ يتحدثون معًا في شتى المجالات، بينما يعمل هو فقط متصنعًا أنه لا يبالي.

أما هما، فقد أصبحت علاقتهما وطيدة بل أصبح بينهما أسرار يأخذون جانبًا بعيدًا عنه وكأنه نكرة، رغم أنه يكره ثرثرتهم.

إلا أنه يبغض أن يتجاهله أحد. زاد الأمر عن حده وشعر أنهم تمادوا إلى حد السخرية منه. لم يعلنوا ذلك، ولكن نظراتهم تكفي.

ومن ثم أصبح لا يطيق النظر إليهم، حتى جاء مساعد المدير يومًا وقال له بسخط: "كنا نثق بك ونظنك أمينًا على عملنا، ولكن خابت آمالنا، أنت مطرود."

ظل واقفًا وكأنه لم يسمع شيئًا. وردد لنفسه: ماذا قال ذلك الأبله؟

وعند مغادرته مكان العمل، وجد الصديقان ينظران إليه بسخرية ويضحكان فيما بينهما. كان الأمر سريعًا تمامًا كأي شيء حدث له في السابق، كوفاة والدته أو فراق والده أو حتى إخوته.

حقيقة، سأل نفسه عدة مرات: ماذا فعل؟ هل اتخاذ قرار العمل أو تهاونه مع البشر هو السبب؟

عاد إلى حيث الوحدة، مكانه المفضل، وكره كل شيء، وأولهم نفسه. ألهذا الحد البشر غير آمنين؟

عاود أخوه الأكبر الاتصال، ولكن هذه المرة لم يجب. كيف يفعل؟ وهو المسؤول منذ البداية.

هو من عاونه لحدوث ذلك، والآن أصبح أدنى من الصفر بفضل أخيه. فهذه المرة، كرامته كانت الثمن.

عاد الماضي ليطارده ويذكره أنه ما زال ضعيفًا ومرتجفًا تمامًا منذ كان صغيرًا، وإلا فلماذا لم يتفوه بحرف بعد طرده أمام الجميع وكرامته بعثرت؟

كان بحاجة للسكون بعد تلك الأيام المخيبة للآمال. في عدة أيام فحسب، ظن أنه إنسان ذو قيمة، لكنه كان مخطئًا مجددًا. لو كانت أمه حية، لذهب إليها وأخبرها كم أن الحياة قاسية وأن الأيام ثقيلة لدرجة لا تقاوم. ولسألها كيف يمكن أن تعاش الحياة.

ذلك الشخص الذي حولنا في كل مكان بهيئته الهادئة وقلة حديثه ووجهه المألوف يحمل في طيات قلبه ما لا يُرى! لطالما اعتاد على ارتداء ذلك القناع المنافق بمظهر القوة والثبات، ولكن في حقيقة الأمر، خلفه إنسان ضعيف مهزوم لم يرد يومًا أن يصل إلى ما هو عليه.

وتتوالى أيام أخرى، والحال كما هو، لا شيء جديد، فقط أيام تحسب من عمره كعداد لا يتوقف. حتى خارت قواه الجسدية والنفسية معًا، ومن ثم قرر الابتعاد عن صخب العالم بأكمله.

هذه المرة ترك العنان لقدميه وأخذت تذهب به عبر ممر في ظلمات الليل إلى مكان ما مجهول لم يعرفه سابقًا لكنه راق له. يكفي أنه بعيد عن صخب الأطفال وضوضاء الازدحام وتلك الأشياء المبعثرة هنا وهناك. كل هذا غير موجود الآن.

توقف بغتة في منتصف الطريق الفسيح وتطلع أمامه حيث الرخاء والسلام في الأرجاء الذي كان قد افتقدهما منذ زمن طويل. ظل واقفًا طويلاً شاردًا في الظلام الفارغ أمامه، حتى بدأ يتسلل إلى أذنيه صوت يهمس وكأنه إنسان يتحدث. اقترب أكثر من مصدر الصوت ورأى رجلًا ذو ثياب راقية ومميزة جالسًا على سياج بجانب الطريق مائلًا برأسه للأسفل ويتفوه ببعض الكلمات الغريبة.

تردد كثيرًا قبل أن يذهب إليه، ولكنه في النهاية فعل وقال: "سيدي، أأنت بخير؟" نظر الآخر إليه وحاول السيطرة على جماح نفسه، ورد مرتبكًا: "لا، لا، أعني نعم، أنا بأفضل حال." فعاد محاولًا عدم إزعاجه قائلاً: "حسنًا، إذا سأغادر." وعندما التفت

ليرحل، أوقفه الرجل وقال:" لحظة، يا سيدي، أأنت من هنا؟" فرد: "لا، يبدو أنني ضللت الطريق فقط."

قال الآخر بعفوية: "هذا أفضل، أقصد لا أقصد هذا.. أنا أيضًا ضللت الطريق، وأريد أن أعود إلي..." قاطعه الرجل بغطرسة: "عذرًا، سيدي، قد ذكرت سابقًا أنني ضائع، وبالتالي لن أستطيع مساعدتك، فكلانا ضل طريقه!" فقال الآخر: "نعم، لكنني لا أقصد ذلك الطريق، هل يمكن أن تكون صديقي لبضعة لحظات فقط؟" رد الرجل بسخرية: "حسنًا، أفضل أن يكون لدي صديق مؤقت."

وتقدم تجاهه بخطوات بسيطة، نحو الرجل، وجلس بجواره يتطلع للأمام صمتًا معًا، كأنهما يأخذان نفسًا بعد ذلك الإحراج. قطع الصمت الرجل ذو الثياب الراقية وسأل: "هل يستطيع المرء أن يتغلب على شيء خارج إرادته؟" فأجاب الآخر بعدم اكتراث: "بالطبع لا." ثم استكمل الرجل قائلاً: "وهذا ما يؤلم، إن كان الأمر بيده لفعل قصارى جهده لتحقيق غرضه، حتى وإن أتت لحظات الضعف واليأس، سيكون أمامه بضعة لحظات أو حتى أيام للاسترخاء وتفريغ أحزانه بدلاً من نوبات تأتيه قسرًا، أليس كذلك؟"

انتظر الآخر أن يجيب ولم يفعل، فتابع قائلاً: "الواقع أن الأمر برمته خارج سيطرته." وعاد الصمت ثانية، وكان الآخر مستمعًا لما قيل بعدم اكتراث محدثًا نفسه: "يكفي ما أمر به." حتى لا يحرج الرجل منذ قدومه، قطع الصمت هذه المرة وقال: "كيف وجدت هذا المكان؟" فرد الآخر: "كنت بمفردي، وهذا نادرًا ما يحدث، فاستغللت الفرصة لأبتعد عن الناس وأتيت هنا بإرشاد من أبي. أليس ذلك أفضل، وأنت ما بك تبدو وحيدًا وغاضبًا؟"

رد الرجل مسرعًا لتغيير مجرى الحديث: "لا، ليس حقيقيًا، ولكن عذرًا، سيدي، ماذا تعني أن يفعل المرء شيئًا خارج إرادته؟" فأجاب الآخر بحزن: "المرض.. المرض." وتابع: "أتعلّم، ربما لم يقدر أحد كيف يصحو ويغفو دون مصاحبة لآلام.. لو شعر به

يومًا أو حتى لحظات، ربما كان فهم قيمة هذا الجسد الذي لا يشتكي من الآلام. أحيانًا أحلم بهذا وأتساءل لو كان لدي هذا الجسد، ماذا كنت سأفعل حينها؟ فأنا مريض ومع ذلك ناجح في حياتي المهنية والاجتماعية، ولكن ذلك المرض يشعرني بمدى الدونية، وكأني مختلف عن الباقي ومفروض أن أعيش متحملًا إياه، "فنجاح لا يكفي مع هذا الجسد المريض، إنه يهددني بالموت بين الفينة والأخرى."

تحدث الآخر مع نفسه قائلاً: "لطالما هناك ثغرة ما في حياتي لم تكن ظاهرة بعد، أتكون الصحة التي امتلكها، ولكن ماذا فعلت به سوى السخط والتذمر طوال الوقت. صحيح أنني لم أتعافَ بعد من فقدان أمي أو خيبة أمل صديق، وأيضًا ندبات أبي التي تصاحبني، ولكن ما زال لدي هذا الجسد السليم."

شعر بالارتباك للحظات وتذكر حديث والدته وأخيه. بدت الكلمات تنثر سحرها على صاحبنا الذي كان ينتظر الموت لينتهي من عذاب لا يحتمل. ولكن اليوم أدرك أن هناك تحديًا أصعب، خاصة وأنه كان خارج إرادته.

عاد الآخر وتابع قائلاً: "ماذا عن هؤلاء الأفراد الذين قُدّر لهم حياة أخرى لم يرغبوا فيها، أولئك الذين يعانون بفترات واعدة مؤلمة لا يمكن حتى تأجيلها، وهم أحياء مدركين، وحتى وإن تأجلت يكون هناك خطأ ما وتصبح حياتهم على المحك. إنه أمر يصعب شرحه يا صديقي إلا لمن عانى منه، فهو يعد بمثابة عائق كبير يشبه أن تنقص لحظات وساعات من عمرك بألم لا يطاق، مع اضطرار وقف سعيك لحين انتهاء النوبات، وهكذا تفكر بعد انتهائها. فما ستفعل وتنجز في الأيام المقبلة حتى قدوم أخرى؟"

اعتدل الآخر في جلسته والتفت ينظر للرجل بتركيز وتحدث قائلاً: "وماذا عن الآخرين الذين لا يعانون من أمراض ويتمتعون بالعافية؟ أتظنهم سعداء؟" أجاب الآخر: "أنا أعرف أشخاصًا تعساء يتمتعون بالصحة والعافية، إنني أشفق عليهم حقًا، فهم لا يقدرون قيمة الأيام وكأنهم ينتظرونها تمضي فحسب، بلا حلم أو أهداف." عاد وسأله مجددًا: "أيكون صعبًا أن تعيش مريضًا لتدرك قيمة كل يوم بل كل ساعة أو

لحظة من حياتك، أم أن تكون معافًا وتعيش في عالم فارغ منتظرًا أجلك يحين بلا اكتراث؟"

رد الرجل بعد تفكير عميق: "بالنسبة لي، أن أكون مريضًا، لأن تلك التي تتحدث عنها ليست حياة. أمي تخبرني دائمًا أن الحياة بلا هدف تصبح أيضًا بلا معنى، إنسان يشبه تمامًا الحيوان يأكل ويشرب وينام. عذرًا على هذا المصطلح ولكنني لا أراه إلا هكذا. كلما عانيت جسديًا أو نفسيًا سيكون هناك مذاق للحياة حتى وإن كان سيئًا. في ذلك ستشعر بقيمتك، فعندما تلتفت وتنتظر لما حققت وترى الآخرين تائهين تعساء ستشعر بالفخر حتى وإن وصل إرهاقك إلى منحدر خطير. أما عن المرض بقدر ما هو سيء وأحيانًا يصل لمرحلة صعبة جدًا، إلا أنه يجعلك تقاتل وتشعر أنك محارب، حتى وإن هُزمت ستظل كذلك، فليس هناك شيء تفعله حياله."

عاد الرجل ليتحدث بأسى: "صديقي، بالنسبة لي، كما قلت، أن تحيا بلا هدف ولديك عافية، فهي أسوأ، لأن الأمر كان بين أيديهم، وسيأتي يوم ويتساءلون بخيبة أمل: 'ماذا أهدرنا، كيف وصل بنا الحال هكذا؟' أتعلم، يا صديقي، أنا ذلك الفتى الذي كان يطمح يومًا أن يكون في مكان آخر."

فابتسم الآخر وعاد يفكر مجددًا في حيرة: "هل لو كان معافي لكان قادرًا على تلك الأيام وأدرك قيمة الحياة كما يعلمه الآن؟" وعاد ينظر أمامه بشرود.

تحدث صاحبنا هذه المرة ببهجة مطمئنة: "أتعلم، ربما كلانا سيء الحظ، وإن كان عندك أفضل مما عندي، فأنت، بالرغم مما تعانيه، تسعى وتقوم بدورك وتطارد الحياة. أما أنا، فعكسك، فلا أواجه بل دائمًا أتهرب من الحياة. كنت أظن أن الحياة تطاردني، ولكن كان هذا قبل مجيئك. أنا من أولئك الذين يعشقون أن يقوموا بذلك الدور، دور الضحية والجلاد.

والتفت لينظر إلى ذلك الرجل وتابع: "منذ كنت طفلاً، تمنيت أشياء كثيرة وأحلامًا زاهية، ولكن مع مرور الأيام وتزاحم المشكلات قد نسيت من أنا وماذا أريد. ربما مصادفة اليوم تجعلني أعود لذلك الشخص مرة أخرى".

وبدأ تدريجياً يتحول وجهه الشاحب إلى وجه مليء بالحيوية. فكلاهما ذكر الآخر بما لديه من نعم، ولكن أرادوا من يذكرهم.

نهض صاحبنا فجأة، حسب أن الآخر سيغادر، ولكنه وجد أنه يسير حتى وصل إلى منتصف الطريق الفارغ، وأشاح بيده نحو القمر المضيء وقال: "انظر إلى هذا الضوء. أتراه يا سيدي؟ إنه موجود، ولكننا لم نره يومًا. هل تظن أنه قد يغير شيئًا من حياتنا؟"

رد الرجل الآخر: "ربما. عندما تضيق الحياة بنا، يجب أن نبحث عن أبطال قصص لا يلومون الظروف ويخلقون الأمل من اللا شيء. اذكر أن شخصًا عزيزًا حذرني سابقًا من الألاعيب الحياة وقال لي إن هناك حقيقة حتمية في العالم وُجدت حينما وحد البشر، وهي أن الجميع يعاني ولكن بطرق مختلفة، ومع ذلك، كل واحد يأخذ بقدر ما يتحمل. فلا يمكن أبدًا أن يعاني أحد فوق طاقته. فكما أن الحزن يعطي مذاقًا للحياة، فإن السعادة تعقبه لتزينه بالألوان."

ردد صاحبنا: "نعم، الجميع يعاني، ولنأمل أن نكون من أولئك الذين يسعون بالأمل ولا يغوصون في ملذات ومشتتات الحياة".

نهض الآخر من مجلسه ونظر إلى ذلك الصديق بنظرة وداع: "صديقي، اليوم وجدنا ذلك الضوء المفقود، ولنرَ غدًا كيف ستكون حياتنا مع هذا الضوء. لنتقابل في القريب العاجل... أتمنى لك حياة سعيدة، أيها الصديق".